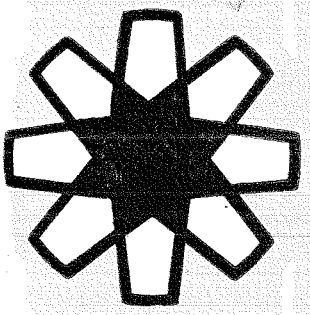

التمكين
في
شرح منازل السائرين

تأليف

السيد محمود أبو الفيض المنوفي

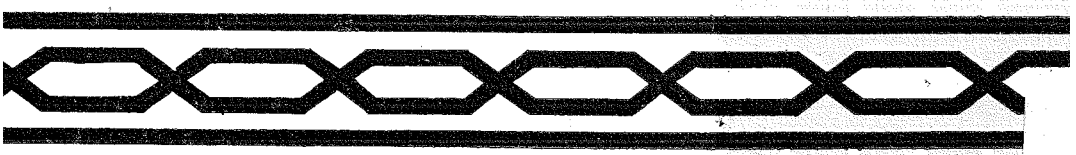

M-B

كتاب التمكين

في شرح منازل السائرين

الملتن لشيخ الاسلام أبي اسماعيل الانصاري الهروي

ه الشرح والتحقيق والتعليق

بقلم

الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني

رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي وعميد السادة الفيضيين

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

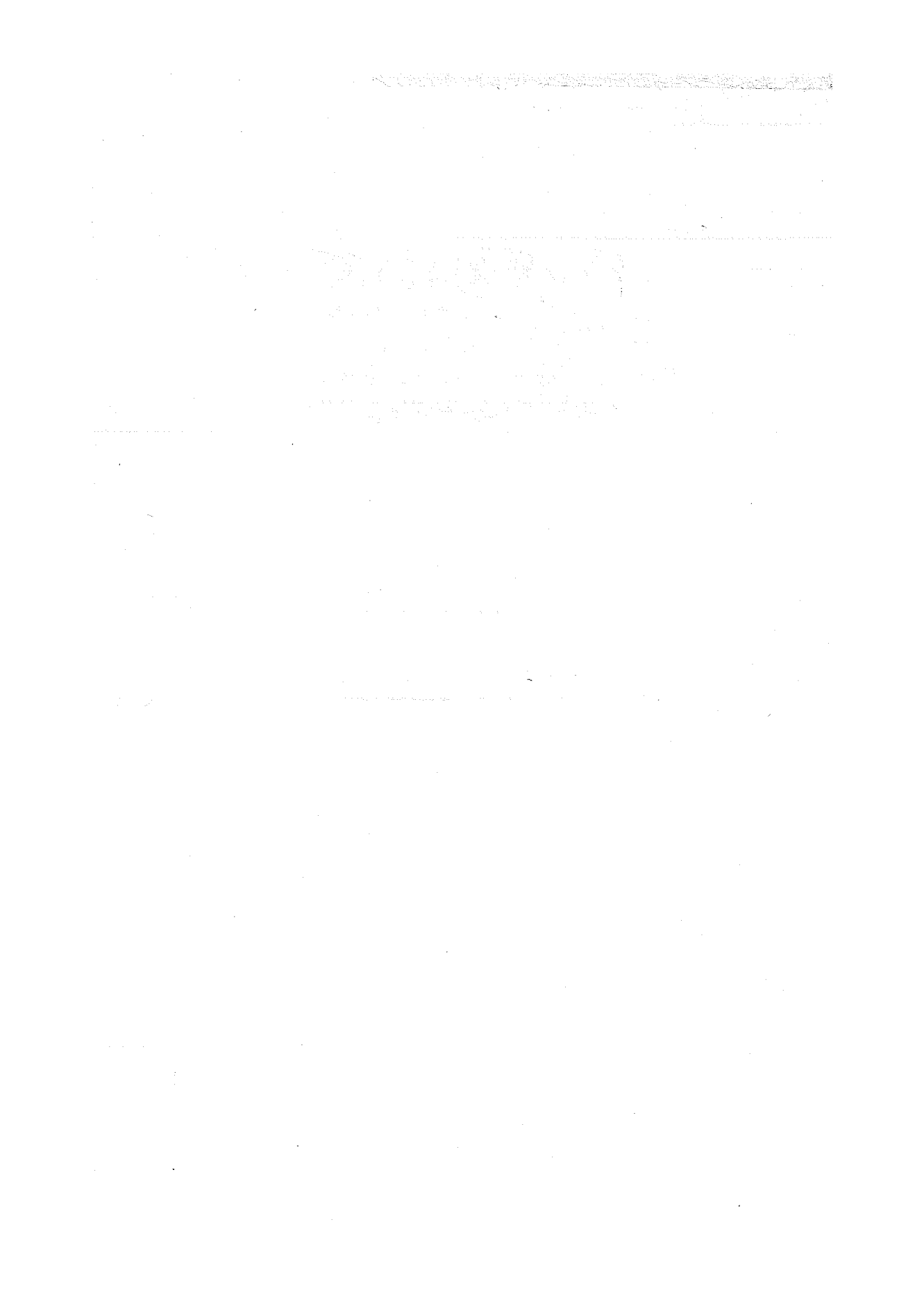

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى اتخذ من عباده صفوة لحضرته وخصهم استثناء من سائر خلقه فقال :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا و قياما . وإذا مرو باللغوا مروا كراما) .

والصلاة والسلام على صفوة المحبوبين وإمام المحبين وسيد المرسلين المبعوث للخلق أجمعين هدى ورحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وبعد .

فلما كان كتاب منازل السائرين للشيخ الإمام الهروى المفسر غنى بالمعانى ولكنه صعب المبانى ، إذا تتبعنا ما يحتويه من حقائق . بحيث ترى ألفاظه ومعانيه تبدو كالرموز لغير البصير الخبير العليم بمصطلحات القول الذين يعنيهم أمرهم من أهل التصوف ومن المسافرين إلى حضرة الحق ، فأردنا تسهيل مبانيه وإيضاح خفى حقائقه ومساتير أسراره وباطن معانيه ؛ لعلنا نفيد بذلك إرواء قلوب المتعطشين وأفئدة الظامئين إلى سلاف الحقائق مواجيد العارفين طالبى واضح المسالك من علوم أهل الطريق ومحبى التحقيق .

وقد آن لنا أن نقبس للقارىء شيئا من مقدمة المؤلف حيث يقول رضى الله عنه فى مقدمة كتابه « منازل السائرين إلى الحق » بعد أن حمد الله وأثنى على رسوله الكريم مبينا المقصد فقال :

الحمد الله الواحد الأحد القيوم الصمد ، اللطيف القريب ، المهيمن السميع المجيب ، الذى أمطر سرائر العارفين كرائم الكلم ، من عماء الحكم وألاح لهم لوائح القدم فى صحائف العدم ، ودلهم على أقرب السبل إلى المنهج الأول ، وردهم من مفترق العلل ، إلى عين الأزل . وبث فيهم ذخائره وأودعهم سرائره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأول والآخر والظاهر الباطن ، الذى مد ظل التكوين على الخليقة سيرا ظليلا ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا ، ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا وصلوات الله وسلامه على صفيه محمد صلى الله عليه ... الخ .

ثم ذكر الشيخ الإمام رضى الله عنه أن جماعة من الراغبين فى الوقوف على منازل السائرين إلى الحق وطالت عليه مسألتهم فكان لا مندوحه له عن إجابتهم وقد سألوه أن يرتب لهم الطريق ترتيبا فى أصوله وفروعه دون أن يخلطه بكلام غير كلامه وذكر أن أحد العارفين عد ألف مقام بين العبد وربه ، من نور وظلمة (والقائل لهذه العبارة) (هو عبد الله البسرى الصوفى) ويقول الشيخ أن هذا قد يصد السالكين عن طريق الحق ، فضلا عن التطويل المؤدى إلى الملالة . . فجعلها الشيخ رضى الله عنه مائة مقام ، مقسومة على عشرة أقسام .

ثم قال : إن العبد لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه إلى غيره ثم يشرف عليه (ليصححه) . واستشهد بقول الإمام الجنيد رحمه الله (قد ينقل العبد من حال إلى حال أرفع منه وقد بقيت عليه بقية من الحال التى نقل عنها فيشرف عليها فى الثانية ويصححها) ثم قال الإمام الهروى رضى الله عنه ، أن عامة علماء هذه الطائفة (أى الصوفيين) اتفقوا على أن «النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات) كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساسات . « وذلك لإقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة ، وتعظيم النهى ، ورعاية الحرمة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت أو يفتن القلب إلى أن قال :

إن الناس فى هذا الشأن ثلاثة نفر : رجل يعمل بين الخوف والرجاء شاخصا إلى الحب مع صحبة الحياء وهذا هو الذى يسمى « المريد » ورجل مختلف من وادى التفريق إلى وادى الجمع وهو الذى يقال له «المراد » .

والرتبة الثالثة وهى : كل ما سواهما فمدع مفتون وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث « الرتبة الأولى : أخذ القاصد فى السير ، والثانية دخوله فى الغربة ، والثالثة : حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد .

ثم استشهد الشيخ رضى الله عنـــه على ذلك بأحاديث منها عن الرتبة الأولى : عن الحسين بن محمد بن على الفرائضى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمى عن أبى هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيروا سبق المفردون قيل يا رسول الله ومن المفردون . قال : المهترون الذين يهترون فى ذكر الله تعالى يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا وهو حديث حسن ومخرج فى صحيح مسلم) والمفردون . معناه المتفردون ، المتخلصون مما يعيقهم عن حب الله وطاعته من الأسباب الفانية والمظاهر الخادعة . وأما المهترون فهم المكثرون من ذكر الله . كما يقول الله تعالى « الذين يذكرون قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم . يأتون يوم القيامة خفافا — فهو واضح لأن من شأن الذكر تسبيحا أو استغفارا يحط من الذنوب والأوزار .

وفى معنى الدخول فى الغربة وهو الرتبة الثانية ما رواه حمزة بن محمد بن عبدالله الطوسى قال . سمعت من أبى عبد الله بن عبدالواحد الهاشمى الصوفى قال سمعت الأبنودى الصوفى بالبصرة قال سمعت جعفر الخالدى الصوفى يقول : قال سمعت الجنيد يقول سمعت السرى السقطى عن معروف الكرخى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على رضى الله عنه أنه قال قال عليه الصلاة والسلام « طلب الحق غربه » .

وأخبرنا فى معنى الحصول على المشاهدة وهى الرتبة الثالثة بحسب

ترتيب الشيخ عن محمد بن على بن الحسين الباسانى عن محمد بن اسحاق القرشى عن عثمان بن سعيد الرازى عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مطر الوراق عن أبى بريدة يحيى بن يعمر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى حديث سؤال جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما الإحسان قال : « إن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك » وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم فى الصحاح وفى هذا الحديث إشارة جامعة لمذاهب هذه الطائفة الصوفية، وإنى مفصل لك درجات كل مقام منها لتعرف درجة العامة منهم ثم درجة السالك . ثم درجة المحقق ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة هو موليها . وقد نسب له علم هو إليه مبعوث وأتيحت له فى غاية هو إليها محثوث . وأنا اسأل الله تعالى أن يجعلنى فى قصده بالعناية مصحوبا وأن يجعل لى سلطانا مبينا أنه سميع قريب .

ثم قال الشيخ الإمام رضى الله عنه معدداً أقسام الأبواب فى كتابه وبين أبوابه المائة فى عشرة أقسام فقال :

إن الأقسام العشرة التى ذكرتها فى صدر الكتاب هى قسم البدايات والتى بعدها قسم الأبواب ثم قسم المعاملات ثم قسم الأخلاق ثم قسم الأصول ثم قسم الأدوية ثم قسم الأحوال ثم قسم الولايات ثم قسم الحقائق ثم قسم النهايات فتكون الأقسام مائة باب فى عشرة أقسام ثم قسم رضى الله عنه : قسم البدايات إلى عشرة أبواب . وهى باب اليقظة وباب التوبة وباب المحاسبة وباب الإنابة وباب الفكر وباب الذكر وباب الاعتصام وباب الفرار وباب الرياضة وباب السماع .

ولنبدأ بشرح (قسم البدايات) :

باب اليقظة

قال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله) والقومة لله تعالى هى اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه .

ثم قال واليقظة ثلاثه أشياء : لحظ القلب للنعمة مع اليأس من عدها . أو الوقوف على حدها والعلم بالتقصير فى حقها والتفرغ إلى معرفة المنة بها .

والثانى : مطالعة الجناية والوقوف على الخطة فيها ثم التشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها والثالث : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان مع الأيام والتنصل من تضنيعها والنظر إلى الضن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها .

(أما قول الشيخ رضى الله عنه القومة لله هى اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة فهو أول مايستنير به قلب العبد إلى النعمة مع اليأس من عدها والوقوف على حدها ومعرفة المنة بها والعلم بالتقصير فى حقها ويريد أن يقول إن اليقظة الصادقة هى القومة والنهوض من حضيض الغفلة لاستنارة قلبه بهواتف الحق ونور التنبيه . وهذا يوجب له ملاحظة نعم الله عليه باطنة وظاهرة وكلما تبصر فيها يئس من عدها أو الوقوف على مدى تعدادها ، فحينئذ يشاهد منه الله عليه فيها من غير استحقاق منه لها . واستجلاب بعوض ، وحينئذ يتيقن تقصيره فى أداء واجب تلك النعم من الطاعة لمسديها والقيام بشكر المنعم بها . وهذا يقتضى ضرورة محبة المنعم واللهج بذكره ورؤية التقصير فى حقه

ثم قال : والثانى أى الأمر الثانى مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها .

والجناية المقصود مطالعتها هنا هى التقصير فى شكر النعمة والقيام بواجب الخدمة فاذا تيقظ العبد لذلك أدرك الخطر منه أى فى جناية التقصير وهذا طبعا يدعوه للتشمير إلى تداركها وطلب النجاة من حضيضها فينظر إلى تعدد اساءاته مع تعدد أنعم الله عليه فيعلم أنه لم يشمر بالسعى فهو فى خطر عظيم حينما يحاسبه صاحب الحق عليه بموجب حقه يوم الجزاء أو فى الدنيا . وهذا يوجب عليه ما فى المرتبة الثالثة التى ذكرها الشيخ من مراتب اليقظة . وهو الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان فى عمله مع مرور الأيام والتخلص من التضييع لكى يتدارك مافاته منها ثم تعمير باقيها بالأعمال الصالحات فيتدارك ما فاته منها فيعمل على الجد فى بقية عمره ويضن بأنفاسه ولحظاته أن تضيع فى غير ما تقرب إلى ربه المنعم عليه. فكل عمل يبعد من الله حسرة على العبد وحجاب عن رؤية فضله .

ثم قال رضى الله عنه : فأما معرفة النعمة فانها تصفو بثلاثة أشياء بنور العقل أى بادمان الفكر فى ملكوت السموات والأرض وفى مواهب الله على النفس أى النعم قال « وبشيم يروق المنة » أى ملاحظة مواهب المنن الواصلة من الحق إلى العبد والاعتبار بأهل البلاء أى الذين استدرجهم الله فأولاهم من النعم الكثير فلم يقوموا ببعض شكره عليه بل انصرفوا بنعمائه عن طاعته وشكره أولئك أهل الغفلة . واما أهل اليقظة فبمشاهدة النعمة ومطالعة جناية الغفلة فانهم بذلك فى يقظة قال : وذلك لايصح إلا بثلاثة اشياء : تعظيم الحق ومعرفة النفس وتصديق الوعيد .

أما تعظيم الحق فبطاعته وشكره والانكسار لحضرته . وأما معرفة النفس فهى درس أطوارها وأول تلك الأطوار أن النفس أمارة بالسوء فاذا تيقظت لامت نفسها وهى النفس اللوامة . فاذا ما استبصرت أكثر فأكثر صارت ملهمة وأبصرت بالبصيرة الصادقة التمييز بين فجورها وتقواها . فتهرب من الفجور والتضييع وتعمر الوقت بالتقوى فاذا

جدت فى ذلك صارت نفسا مطمئنة واستحقت بذلك قوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ويؤيد ذلك ويدعو إليه تصديق الوعيد أى ماتوعد الله به . وقد استغرب القوم وهم الصوفية فقالوا (من صدق بالوعيد كيف يحيد ؟) وذلك لأن التصديق بالوعيد يحض على العزم والتشمير فى السير ويمنع من تضييع الأوقات فى الطعن والتخلف لأن من عظمت مخافة الله عنده قلت أو امتنعت مخالفته له . ثم قال الشيخ . وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام فإنها تستقيم بثلاثة أشياء سماع العلم واجابة داعى الحرمة وصحبة الصالحين ، وملاك هذا كله ترك العادات ومفارقة المألوفات أى مألوفات النفس من النزوات والهوى .

أما العلم فهو أساس كل طاعة وأول كل معرفة ولن يطاع الله بالجهل وإنما يطاع بالعلم ، وحسبنا فى ذلك أن أول الآيات التى أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم تحض على العلم وذلك فى قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ثم قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد ذلك (وقل رب زدنى علما) .

وأما إجابة داعى الحرمة أى خشية الحق واحترام أوامره التى هى أوامر شرعه فإنها هى الطريق الوحيد إلى رضوانه والوصول إلى حضرته .

(أما صحبة الصالحين فإنها عون على مراده ومقصده بسماع أقوالهم ورؤية أحوالهم والتشبه بهم .

قال وملاك ذلك كله : ترك العادات وذلك لأن العادات الشائعة فى الناس مبعدة فتركها مقرب إلى حضرة الحق . فأول مايبدأ به صاحب اليقظة وهو المقام الذى نتكلم فيه بأن يقوم لله قومة كما يقول الشيخ . والقومة لله انخلاع عن رق العادات وقيد الشهوات والنهوض من الوقوع فيما يقع فى

مثله شرار المخلوقات فإذا تمكنت اليقظة من قلب العبد أوجبت الفرقة فى المآل والمصير والماضى والحاضر والمستقبل ضرورة .

وفى هذه المعانى كلها من باب اليقظة والانتباه أنشد منشد القوم القصيدة الآتية : مرتبة على أحرف المعجم .

انتبه من كل نوم اغفلك ... واخش ربا بالعطايا جملك
بع له دنيا[1] بأخراك فمن ... باع أخراه بدنيـــاه هلك
تابع المختار واسلك نهجه ... فهو نور من مشى فيه سلك
ثق بمولاك وكن عبـــدا له ... إن عبد الله فى الدنيا ملك
جدد النوح على ماقد مضى ... من زمان فى المعاصى شغلك
حاسب النفس وعلمها الرضى ... بالقضاء واعص هواها ترضى لك
خذ من التقوى لباسا طاهرا ... فالتقى خير لبـــاس يمتلك
داوم الذكر لخلاق الورى ... واترك الأمر لمن أجرى الفلك
ذل واخضع واستقم واعبد له ... مخلصا يفتح باب الخير لك
روح القلب له والمكلف على ... بابه فهو الذى قد فضـــلك
زين الباطن بالتقـــوى كما ... تحسن الظاهر تعطى أملك
ســـلم الأمر لله تسلم فكم ... من فتى قد سلم الأمر سلك
شق حجب الكون للمعبود لا ... تلتفت إلا إليه يقبـــلك
صن عن الدنيا فؤادا ويدا ... ولســـانا وله أخلص عملك
ضم أحشاك على توحيـــده ... فهو نور يذهب الداجى الحلك
طب به واقتنع به عن غيره ... فهو كاف فضـــله قد شملك
ظن خيرا تلتق ما ترتجى ... من جميع الخير حتى يقبلك

---

(١) المراد ببيع الدنيا هنا ليس تعطيلها وانما تسليمها لله مع العمل فيها على شرط الرضى بما يجريه الله على العبد فى عمله للدنيا .

عـــد إليه كلما حل البلى ... عل تسلم من رجيم سولك
غص بحار الأنس فى جنح الدجى ... لكريم بالعطـــايا خولك
فارق التدبير والعـــلم له ... واسأل المولى يصفى منهلك
قل بذل يارحيم الرحمـــاء ... يا منج بالعطايا من هلك
كن مجيرا ونصـــيرا وحمى ... لعبد مذنب قد ســـألك
لذت بالباب فحاشا أن أرى ... تعبا والأمر والتدبير لك
مر عيش والخطا أبعـدنى ... واعتقادى الصفح عمن عامللك
نجنـــا من كل كرب وبلى ... يوم يبقى العبد مكتوب الملك
هب لنا الستر ولا تفضحنا ... يا آلهى واعف عمن سألك
وإذا حاسبتنا فى الحشر قل ... أن ذا عبدى وفى فضلى سلك
لا تؤاخذنى نهار الحشر إن ... شهدت أعضاء بالأفعال لك
يا مجيب القصـــد يسر أمرنا ... واقض عنا ما المخلوق ولك
وصـــلاة وســـلاما للذى ... جاءنا نورا فنجى من هلك
أحمـد المحمود مع أصحابه ... ما سرى سار فى نهار أو وجل

باب التوبة

وبعد هذا بدأ الشيخ رضى الله عنه يتكلم عن مقام التوبة ، وطبعا ليس بعد اليقظة فى عرف أهل التصوف سوى التوبة وقال الله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) فأسقط اسم الظلم عن التائب . والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء — إلى انخلاعك عن المعصية حين إتيانه وفرحك عند الظفر به وقعودك على الإصرار عن تداركه مع تنبوئك بنظر الحق إليك — ومعنى قوله رضى الله عنه انخلاعك عن المعصية أى بالخروج عن الطاعة إلى المعصية حين إتيان الذنب وفرحك عند الظفر به أى السرور باتيان الذنب مع أنه موبق وذلك

السرور عادة يدعوك إلى الإصرار على الذنب فلا تتداركه بالرجوع إلى الطاعة مع علمك اليقينى بأن الله ناظر إليك .

ثم قال رضى الله عنه . وشرائط التوبة ثلاثة أشياء : الندم ، والاعتذار والإقلاع — أى الندم على مامضى من وقتك فى المعصية وكان أولى به ألا ينفق إلا فى طاعه ، وهذا ما يوجب الاعتذار إلى ربك بالإقلاع عن ذنبك والاستغفار لحصوله ثم التوبة منه والإقلاع عنه — ثم قال رضى الله عنه وحقائق التوبة ثلاثة أشياء تعظيم الجناية واتهام النفس وطلب أعذار الخليقة — والتوبة لا تكون إلا بالتفكر فى عظم الذنب واتهام النفس فيما دعت إليه من المعصية دعوتها إلى المتاب مع طلب أعذار الخليقة .

وقوله وطلب أعذار الخليقة : معناه ألا يقيس نفسه بغيره من العصاة الذين كان مبلغ موضعهم من الله ما أقاموا فيه من نقص ولا تلومنهم على أن شجعوك على المعصية بل تسامحهم وتطلب العذر لهم . وذلك بألا تتهم إلا نفسك التى أنت مسئول عنها دون غيرها .

ثم قال وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز الثقة من العزة ونسيان الجناية والتوبة من التوبة . لأن التائب داخل فى الجميع من قوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) فأمر التائب بالتوبة (فكان له الفضل وهذا يجعل التائب ينسى نفسه أنه تائب) .

ثم قال ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها — النظر إلى الجناية والمعصية فتعرف مراد الله تعالى فيها إذا أخلاه وإتيانها فان الله تعالى إنما يخلى العبد والذنب لأحد معنيين : أحدهما أن يعرف عزته فى قضائه وبره فى ستره ، وحلمه فى إمهال راكبه وكرمه فى قبول المعذرة منه ، وفضله فى معرفته .

والثانى ليقيم على العبد حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته . واللطيفة

الثانية أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال لأنه يسير بين مشاهدة المنة وإصلاح عيب النفس ، واللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد للحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده عن جميع المعانى إلى معنى الحكم — أما قوله النظر إلى الجناية والمعصية وذلك من جهة عظمها وفظاعة إتيانها لا من جهة تقديرها من الله تعالى عليه فإن الله ما أخلى العبد وإتيان المعصية إلا لأن يعرف العبد عزة ربه فى قضائه ويعرف بره فى ستره ويدرك حلمه فى إمهاله . ثم كرمه فى قبول المعذرة منه إذا اعترف العبد بذنبه وتاب منه إلى بارئه . وفى تعرف فضله فى معرفة أن له ربا غفورا للذنب وشكورا للعمل الصالح . هذه واحدة ، والثانية أن يقيم الرب على العبد حجة عدله إن عاقبه على ذنبه وحينئذ يتحقق العبد أن نظر السالك البصير فى سيئته وفضل ربه عليه لم يبق له شخصيا حسنة يفتخر بها بحال من الأحوال لأنه يكون مشغولا حينئذ بشيئين مشاهدة منة ربه فى الطاعة وإصلاح عيب النفس بالمحاسبة وكلاهما من الله لا منه . ثم يبين وجه العمل الصالح المثبت لوجود المنة والثانى لظلمة المعصية وذلك لأن مشاهدة العبد لأصل الحكم الإلهى فى الخلق لم تدع له استحسان حسنة تأتى من قبل نفسه فيفخر بها ولا استقباح سيئة من غيره وذلك لصعوده أى ارتفاع بصيرته عن جميع هذه المعانى العملية إلى معنى الحكم القدرى الكونى والحكم الشرعى الأمرى .

ولذلك قال رضى الله عنه فان توبة العامة من الاستكثار للطاعة ، وقد يدعو إلى ثلاثة أشياء : جحود نعمة الستر والفرح والسرور للامهال ثم رؤية الحق على الله والاستغناء الذى هو عين الجبروت والتوثب على الله تعالى أى بالمكابرة والجحود وتوبة الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة بمحض التزين والاسترسال الذى قد يؤدى إلى القطيعة وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت ، فانه يدعو إلى درك النقيصة وبطوء نور المراقبة ويكدر عين الصحبة (وقوله : إن توبة العامة

من الاستكثار للطاعة يدعو إلى ثلاثة أشياء جحود نعمة الستر والإمهال ذلك لأن العبد يرى أنه مضيع ولم يعلم أن نفس الطاعة ستر وفضل من الله عليه . وكذلك قد يخطىء ولا يدرى لأن العبد خطاء وأن الكمال لله وحده فيمهله الله فى خطئه عن عقابه سترا له عسى أن يحاسب نفسه ، فان عمى العبد عن ذلك رأى أن له على الله حقا بطاعته وذلك يكون استغناء عن عفوه . وهو ضرورة كما يقول الشيخ: عين الجبروت والتوثب على الله فى حقه من حيث أن الله مطلق الثواب والعقاب والعفو والستر والمغفرة فيجب على عوام المطيعين أن يتوبوا من رؤية تلك التوبة التى تورطهم فى المعصية وهى معصية رؤية الكمال والتوثب على الله بادعاء ماله وحده من كمال . وذلك استغناء من العبد وهو عين المعصية بل إنها ثم قال الشيخ الإمام رضى الله عنه . وتوبة الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة ومحض التزين بالحمية والاستعداد للقطيعة — ومعنى قول الشيخ فى توبة الأوساط — أى أواسط الناس — يجب أن تكون من استقلال المعصية — أى استصغارها — مع فظاعتها بالنسبة للطاعة مهما كانت فى قلة أو فى كثرة . وقد نسوا فضل الله فى توبتهم وأنها منه ونسبوها إلى أنفسهم وذلك هو عين الجرأة على الله تعالى والمبارزة لأوامره عنها لمحض التزين بالحمية — أى أنهم فى حمية منها بطاعتهم ولو حاسبهم الله على تلك الطاعة فى حقيقتها لانقلبت ذنوبا ، لأن هذا الحال فى باطنه وظاهره يعد استعدادا للقطيعة عن الله وطاعته لا يرى فضل الله فيها فهى جديرة بأن تعد معصية لمباينتها لاسم الطاعة ومعناها .

ثم قال رضى الله عنه . وتوبة الخواص من تضييع الوقت فإنه يدعو إلى درك النقيصة ويطفىء نور المراقبة ويكدر عين الصحبة . ومعنى قوله وتوبة الخواص من تضييع الوقت أى تكون من تضييع الأوقات . فإن لكل وقت عملا . فإذا لم يقم العبد بكل عمل فى وقته فقد ضيع ذلك الوقت

وتضييع الأوقات والأنفاس يدعو ضرورة إلى درك النقيصة أى الجهة التى يأتى منها النقص وتضييع الوقت أيضاً يطفىء نور المراقبة لأن العبد لو كان مراقبا لربه فى سائر أوقاته وأنفاسه ما جنح نحو هـذا النقص الذى يكدر عين الصحية أى مع الله تعالى — ثم قال رضى الله عنه لا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق . ثم رؤية تلك التوبة ثم التوبة من رؤية تلك العـــلة . وهى رؤية أن التوبة من نفسه حالة أنها منة من الله عليه . ويريد رضى الله عنه أن يقول . ومع هذه النقائص السالفة المناقضة للتوبة ، فلا تتم التوبة إلا بالتوبة عما دون الحق والمراد بالحق هنا الحق فى نفسه، الحق الذى ينبغى لله تعالى ، وليس هذا فقط بل يجب التوبة من رؤيه تلك العلة أى رؤية التوبة لأنها هنا علة لاستشعار التائب أنه تائب وفى ذلك من الاستعلاء مافيه من رؤية الحق على الله بتلك التوبة فانها طاعة . وربما كان ذلك التائب مستدرجا فى توبته لا تائبا . فأراد الشيخ رضى الله عنه أن ينبه عن علل التوبة وعن الأمور التى تجعلها توبة مدخولة بعدم صفاء النية فيها حاله أنه من شأن التوبة الخالصة أن تكون نصوحا كما قال الله تعالى « وتوبوا إلى الله توبة نصوحا » والنصوح هو الخلوص والصفاء ، فمن لم تكن توبته نصوحا هكذا تكون توبة مدخولة بعلة من العلل التى عددها الشيخ رضى الله عنه . ولذا فالشيخ يكاد أن يرى التوبة هى التوبة من مثل تلك التوبة المدخولة .

والتوبة أصل كل مقام فى طريق التصوف . وكمال كل حال من أحوال الصوفية وهى أيضا شرط فى الإسلام والإيمان أى فى الشريعة والحقيقة وهى أيضا أول سلوك الطالبين فى الطريقة ومفتاح الخير لكل العارفين ورأس مال الفائزين وأول أقدام المريدين ومفتاح استقامة السالكين ومطلع اصطفاء المصطفين . ولما كان الخير والشر معجونين فى طينه ابن آدم منذ جبلت طينته فاحتاجت الاستقامة إلى النية وأسست الطريق على التوبة .

(ثم اعلم أيها القارىء أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور «أحدها» أن ينظر إلى الأمر والنهى فيحدث له من ذلك الاعتراف بأن الخطيئة خطيئة وهذا يوجب ضرورة الإقرار على النفس بالذنب «والثانى» أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها حين تقدرها عليه ولو شاء لعصمه منها وحال بينه وبينها فيحدث له من ذلك نوع من النظر إلى تصاريف الحق وشهود إجراء معانى أسمائه وصفاته بمقتضى حكمته فيعرف مع ذلك أن لله بجانب اسمه الغفار القهار القاهر فوق عباده فيرجع إليه بحال اضطرار وانكسار فيستغفره إذا أحدث ذنبا ويكون هـــذا الاستغفار نفسه منة من الله عليه فيشكره . «ثالثا» أن الرضى عن الطاعة من رعونات النفس حيث ترى أنها صادرة عنها وسائر أرباب العزائم والبصائر ليس هذا شأنهم فإنهم أشد ما يكونون صفاء عقب الطاعات لشهودهم فيها وأنها من فضل الله عليهم .

«رابعا» رؤية الذل والإنكسار حال الطاعة دون الاعتذار أو الاحتجاج بها لأن الإنكسار هنا يعتبر شكرا لله واهب الطاعات لعباده . وهو فى نفسه عبادة وفى هذا يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه «من تحقق بالعبودية نظر إلى أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوة لوجود نفسه صيانة لها عما يكون قد حدث فيها من الاعزاز بها أو الاعتماد عليها (أى الطاعة) .

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال «دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام حتى جئت باب الإنكسار والاستغفار فإذا هو أقرب باب إلى الله وأوسعه ولا مزاحم فيه أو معوق .

«خامسا» عدم رؤية التائب أنه تائب فإن ذلك (أى رؤيته لنفسه فى توبته) موجب للاعتذار والمطلوب منه لزوم أعتاب العبودية والتذلل لحضرته وهو العزيز الأكبر وقد أنشد بعضهم فى هذا المعنى :

أذل لمن أهوى لأكسب عزة فكم عزة قد نالها العبد بالذل
وإذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ذليلا له فاقرأ السلام على الوصل

ويقول الله عز وجل (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدا أبدا) .

فإن حدثت السيئة بعد التوبة فاتبعها بحسنة مشمولة بالانكسار لتكون مقبولة ولا ترى لنفسك فى ذلك فضلا .

وكثير من الناس يفسرون التوبة بالعزم على أن لا يعود إلى الذنب وبالاقلاع فى الحال عن موجبات الذنوب ، ويرون الندم على الذنب الماضى وذلك لا يحدث إلا إذا كان الاعتصام بالله وطاعته ضعيفا (لأنه تردد) وإنما لو علت همة التائب وثبت صدقه فى توبته وأخلص النية فى تلك التوبة . كان حقا على الله تعالى أن يتقبلها إلا أن يكون الذنب فى حق آدمى مثله فلا بد له من أن يتحلل منه قبل التوبة أو بعدها ، وهذا هو الشرط الوحيد الذى يربطه بما قبل التوبة . والتوبة فى كلام الله وكلام الرسول تتجه إلى أن تكون نصوحا مشتملة على العزم لفعل المأمورات والتزامها وترك المنهيات واجتنابها وتلك هى حقيقة التوبة لأنهما تضم مجموع الأمرين معا : العزم على الترك والعزم على الفعل . وبهذا وذاك تكون التوبة مرادفة لكلمة التقوى لأنها عند إيرادها بالقول تقتضى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه وعند خاصة القوم التوبة هى الرجوع إلى الله دون تعريج على شىء والتوجه للاستعانة به على نفاذ تلك التوبة ولا بد للتائب من دوام الاستغفار بغية التقرب لا تذكرا للماضى . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستغفر الله عقب كل طاعة وكذلك الصحابة وخاصة أهل الله .

وفى الأثر الإلهى « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى حبوا أتيته هرولة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الخ . الحديث) .

وأخيرا يجب أن يكون التائب على حد قول من قال : —

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير موهبة من عنده يأتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة و ... لا عن النفس دفع المضرات
وليس دونه مولى يدبرنى ... ولا شفيع إذا حاطتنى خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما جاء فى الآيات
وليست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريك أنا فى بعض حالاتى
والفقر لى وصف لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
ومن بغى مطلبا من دون خالقه ... فهو المظلوم المشرك العاتى

باب المحاسبة

يقول الشيخ رضى الله عنه مبتدأ بكلام الله حيث يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » وهذا واضح ثم يقول : إنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة . والمحاسبة لها ثلاثة أركان أحدهما أن تقايس بين نعمته وجنايتك وهذا بشق على من ليس له ثلاثة أشياء : نور الحكمة . وســـوء الظن بالنفس ، وتمييز النعمة من الفتنة . والثانى — أن تميز ما للحق عليك مما لك أو منك فتعلم أن الجناية حجة عليك والطاعة منة منه إليك والحكم عليك حجة فما هو لك بمعذرة . والثالث — أن تعرف أن كل طاعة منك رضيتها فهى عليك . وكل معصية عبرت بها أخاك فهى إليك . فلا تضع ميزان وقتك من يدك .

أما فى قول الشيخ رضى الله عنه . إنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة فهذا أمر لابد من وقوعه فمن اراد سلوك طريق الله إذن حدثت يقظته، وليس بعد اليقظة إلا المحاسبة أيضا المؤدية إلى التوبة . كما أن التوبة إذا حدثت فلا بد من حال حدوثها من المحاسبة . فالمحاسبة أمر يجب